سلسلة الدروس (١٨)

١٤٤٨هـ

شرح

رياض الصالحين

تأليف

الإمام أبي زكريا يحيى بن شرف النووي الدمشقي

٦٣١ - ٦٧٦هـ

الشيخة

أم عبد الله بنت الشيخ مقبل بن هادي الوادعي

حفظها الله تعالى

دار الوادعية

بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس (١٠)

قال أَبُو زَكَرِيَّا مُحيِي الدِّينِ يَحيَى بنُ شَرَفٍ النَّوَوِيُّ رحمه الله:

٢١/١-وعَنْ عبْدِ اللَّهِ بنِ كَعْبِ بنِ مَالِكٍ-وكانَ قائِدَ كعْبٍ رضي الله عنه مِنْ بَنِيهِ حِينَ عَمِيَ-قَالَ: سَمِعْتُ كعْبَ بنَ مَالِكٍ رضي الله عنه يُحَدِّثُ بِحدِيثِهِ حِين تخَلَّف عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ، في غزوةِ تبُوكَ. قَال كعْبٌ: لمْ أَتخلَّفْ عَنْ رسولِ الله ﷺ، في غَزْوَةٍ غَزَاها قط إِلاَّ في غزْوَةِ تَبُوكَ، غَيْر أَنِّي قدْ تخلَّفْتُ في غَزْوةِ بَدْرٍ، ولَمْ يُعَاتَبْ أَحد تَخلَّف عنْهُ، إِنَّما خَرَجَ رسولُ الله ﷺ والمُسْلِمُونَ يُرِيُدونَ عِيرَ قُرَيْش حتَّى جَمعَ الله تعالَى بيْنهُم وبيْن عَدُوِّهِمْ عَلَى غيْرِ ميعادٍ. وَلَقَدْ شهدْتُ مَعَ رسولِ اللَّهِ ﷺ ليْلَةَ العقبَةِ حِينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلامِ، ومَا أُحِبُّ أَنَّ لِي بِهَا مَشهَدَ بَدْرٍ، وإِن كَانتْ بدْرٌ أَذْكَرَ في النَّاسِ مِنهَا وكانَ مِنْ خَبَري حِينَ تخلَّفْتُ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ، في غَزْوَةِ تبُوك أَنِّي لَمْ أَكُنْ قَطُّ أَقْوَى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخلَّفْتُ عَنْهُ في تِلْكَ الْغَزْوَة، واللَّهِ ما جَمعْتُ قبْلها رَاحِلتيْنِ قطُّ حتَّى جَمَعْتُهُما في تِلْكَ الْغَزوَةِ، ولَمْ يكُن رسولُ الله ﷺ يُرِيدُ غَزْوةً إِلاَّ ورَّى بغَيْرِهَا حتَّى كَانَتْ تِلكَ الْغَزْوةُ، فغَزَاها رسولُ الله ﷺ في حَرٍّ شَديدٍ، وَاسْتَقْبَلَ سَفرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا. وَاسْتَقْبَلَ عَددًا كَثيرًا، فجَلَّى للْمُسْلِمِينَ أَمْرَهُمْ ليَتَأَهَّبوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فَأَخْبَرَهُمْ بوَجْهِهِمُ الَّذي يُرِيدُ، وَالْمُسْلِمُون مَع رسولِ الله كثِيرٌ وَلاَ يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ-يُرِيدُ بذلكَ الدِّيَوان-قَالَ كَعْبٌ: فقلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إِلاَّ ظَنَّ أَنَّ ذلكَ سَيَخْفى بِهِ مَالَمْ يَنْزِلْ فيهِ وَحْيٌ مِن اللَّهِ، وغَزَا رَسُول الله ﷺ تلكَ الغزوةَ حِينَ طَابت الثِّمَارُ والظِّلالُ، فَأَنا إِلَيْهَا أَصْعرُ، فتجهَّز رسولُ الله ﷺ وَالْمُسْلِمُون معهُ، وطفِقْت أَغدو لِكَىْ أَتَجَهَّزَ معهُ فأَرْجعُ

ولمْ أَقْض شَيْئًا، وأَقُولُ في نَفْسي: أنا قَادِرٌ على ذلِكَ إِذا أَرَدْتُ، فلمْ يَزلْ يَتمادى بي حتَّى اسْتمَرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأَصْبَحَ رسولُ الله ﷺ غَاديًا والمُسْلِمُونَ معَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازي شيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْض شَيْئًا، فَلَمْ يزَلْ يَتَمادَى بِي حَتَّى أَسْرعُوا وتَفَارَط الْغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِل فأَدْركَهُمْ، فَيَاليْتَني فَعلْتُ، ثُمَّ لَمْ يُقَدَّرْ ذلِكَ لي، فَطفقتُ إِذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْد خُرُوجِ رسُول اللهِ ﷺ يُحْزُنُنِي أَنِّي لا أَرَى لِي أُسْوَةً، إِلاَّ رَجُلًا مَغْمُوصًا عَلَيْه في النِّفاقِ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللَّهُ تعالَى مِن الضُّعَفَاءِ، ولَمْ يَذكُرني رَسُولُ اللهِ ﷺ حتَّى بَلَغ تَبُوكَ، فقالَ وَهُوَ جَالِسٌ في القوْمِ بتَبُوك: ما فَعَلَ كعْبُ بْنُ مَالكٍ؟ فقالَ رَجُلٌ مِن بَنِي سلمِة: يا رَسُولَ اللهِ حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَالنَّظرُ في عِطْفيْه. فَقال لَهُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه: بِئس مَا قُلْتَ، وَاللَّهِ يا رَسُولَ اللهِ مَا عَلِمْنَا علَيْهِ إِلاَّ خَيْرًا، فَسكَت رَسُولُ اللهِ ﷺ. فبَيْنَا هُوَ علَى ذَلِكَ رَأَى رَجُلًا مُبْيِضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ، فقالَ رسولُ اللهِ ﷺ: كُنْ أَبَا خَيْثمَةَ، فَإِذا هوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الأَنْصَاريُّ وَهُوَ الَّذي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْر حِيْنَ لَمَزَهُ المنافقون قَالَ كَعْبٌ: فَلَّما بَلَغني أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَدْ توَجَّهَ قَافلا منْ تَبُوكَ حَضَرَني بَثِّي، فطفقتُ أَتذكَّرُ الكذِبَ وَأَقُولُ: بِمَ أَخْرُجُ مِنْ سَخطه غَدًا وَأَسْتَعينُ عَلَى ذلكَ بِكُلِّ ذِي رَأْي مِنْ أَهْلي، فَلَمَّا قِيلَ: إِنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قدْ أَظِلَّ قَادِمًا زاحَ عَنِّي الْبَاطِلُ حَتَّى عَرَفتُ أَنِّي لم أَنج مِنْهُ بِشَيءٍ أَبَدًا ذَلك جَاءَهُ الْمُخلَّفُونَ يعْتذرُون إِليْه وَيَحْلفُون لَهُ، وَكَانُوا بِضْعًا وثمَانين رَجُلا فَقَبِلَ منْهُمْ عَلانيَتهُمْ وَبَايَعَهُمْ وَاسْتغفَر لهُمْ وَوَكلَ سَرَائرَهُمْ إِلى الله تعَالى. حتَّى جئْتُ، فلمَّا سَلَمْتُ تبسَّم تبَسُّم الْمُغْضب ثمَّ قَالَ: «تَعَالَ». فجئتُ أَمْشي حَتى جَلَسْتُ بيْن يَدَيْهِ، فقالَ لِي: «مَا خَلَّفَكَ؟ أَلَمْ تكُنْ قَدِ ابْتَعْتَ ظَهْرَك». قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِنِّي واللَّه لَوْ جلسْتُ عنْد غيْرِكَ منْ أَهْلِ

الدُّنْيَا لَرَأَيْتُ أَني سَأَخْرُج من سَخَطه بعُذْرٍ، لقدْ أُعْطيتُ جَدَلا، وَلَكنَّني وَاللَّه لقدْ عَلمْتُ لَئن حَدَّثْتُكَ الْيَوْمَ حَدِيثَ كَذبٍ ترْضى به عنِّي لَيُوشكَنَّ اللَّهُ يُسْخطك عليَّ، وإنْ حَدَّثْتُكَ حَديث صدْقٍ تجدُ عليَّ فِيهِ إِنِّي لأَرْجُو فِيه عُقْبَى الله ﷻ، واللَّه ما كَانَ لِي مِنْ عُذْرٍ، واللَّهِ مَا كُنْتُ قَطُّ أَقْوَى وَلا أَيْسر مِنِّي حِينَ تَخلفْتُ عَنك قَالَ: فقالَ رسولُ الله ﷺ: «أَمَّا هذَا فقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضيَ اللَّهُ فيكَ». وسَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلمة فاتَّبعُوني، فقالُوا لِي: واللَّهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذنْبتَ ذَنْبًا قبْل هذَا، لقَدْ عَجزتَ في أنْ لا تَكُون اعتذَرْت إِلَى رَسُول الله ﷺ بمَا اعْتَذَرَ إِلَيهِ الْمُخَلَّفُون فقَدْ كَانَ كافِيَكَ ذنْبكَ اسْتِغفارُ رَسُول الله ﷺ لَك. قَالَ: فَوالله ما زَالُوا يُؤنِّبُونني حتَّى أَرَدْت أَنْ أَرْجِعَ إِلى رسولِ الله ﷺ فأُكَذِب نفسْي، ثُمَّ قُلتُ لهُم: هَلْ لَقِيَ هَذا معِي مِنْ أَحدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ لقِيَهُ مَعَكَ رَجُلان قَالا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وَقيلَ لَهمَا مِثْلُ مَا قِيلَ لكَ، قَال قُلْتُ: مَن هُمَا؟ قالُوا: مُرارةُ بْنُ الرَّبِيع الْعَمْرِيُّ، وهِلال ابْن أُميَّةَ الْوَاقِفِيُّ؟ قَالَ: فَذكَروا لِي رَجُلَيْنِ صَالِحَيْن قدْ شَهِدا بدْرًا فِيهِمَا أُسْوَةٌ. قَالَ: فَمَضيْت حِينَ ذَكَروهُمَا لِي. وَنهَى رَسُول الله ﷺ عَنْ كَلامِنَا أَيُّهَا الثلاثَةُ مِن بَين من تَخَلَّف عَنهُ، قالَ: فاجْتَنبَنا النَّاس أَوْ قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا حَتَّى تَنكَّرت لِي في نَفْسي الأَرْضُ، فَمَا هيَ بالأَرْضِ الَّتي أَعْرِفُ، فَلَبثْنَا عَلَى ذَلكَ خَمْسِينَ ليْلَةً. فأَمَّا صَاحبايَ فَاستكَانَا وَقَعَدَا في بُيُوتهمَا يَبْكيَانِ وأَمَّا أَنَا فَكُنتُ أَشَبَّ الْقَوْمِ وَأَجْلَدَهُمْ، فَكُنتُ أَخْرُج فَأَشهَدُ الصَّلاة مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَطُوفُ في الأَسْوَاقِ وَلا يُكَلِّمُنِي أَحدٌ، وآتِي رسولَ الله ﷺ فأُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَهُو في مجْلِسِهِ بعدَ الصَّلاةِ، فَأَقُولُ في نفسِي: هَل حَرَّكَ شفتَيهِ بردِّ السَّلامِ أَم لاَ؟ ثُمَّ أُصلِّي قَريبًا مِنهُ وأُسَارِقُهُ النَّظَرَ، فَإِذَا أَقبَلتُ عَلَى صلاتِي نَظر إِلَيَّ، وإِذَا الْتَفَتُّ نَحوَهُ أَعْرَضَ عَنِّي، حَتى إِذا طَال ذلكَ عَلَيَّ مِن جَفْوَةِ الْمُسْلمينَ مشَيْت

حَتَّى تَسوَّرْت جدارَ حَائط أبي قَتَادَةَ وَهُوَا ابْن عَمِّي وأَحبُّ النَّاسَ إِلَيَّ، فَسلَّمْتُ عَلَيْهِ فَواللَّهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فَقُلْت لَه: يَا أَبَا قتادَة أَنْشُدكَ باللَّه هَلْ تَعْلَمُني أُحبُّ الله وَرَسُولَه ﷺ؟ فَسَكَتَ، فَعُدت فَنَاشَدتُه فَسكَتَ، فَعُدْت فَنَاشَدْته فَقَالَ: اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ، وَتَوَلَّيْتُ حَتَّى تَسَوَّرتُ الْجدَارَفبَيْنَا أَنَا أَمْشي في سُوقِ المدينةِ إِذَا نَبطيٌّ منْ نبطِ أَهْلِ الشَّام مِمَّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يبيعُهُ بالمدينةِ يَقُولُ: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كعْبِ بْنِ مَالكٍ؟ فَطَفَقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَى حَتَّى جَاءَني فَدَفَعَ إِلى كتَابًا منْ مَلِكِ غَسَّانَ، وكُنْتُ كَاتِبًا. فَقَرَأْتُهُ فَإِذَا فيهِ: أَمَّا بَعْدُ فَإِنَّهُ قَدْ بلَغَنَا أَن صاحِبَكَ قدْ جَفاكَ، ولمْ يجْعلْك اللَّهُ بدَارِ هَوَانٍ وَلا مَضْيعَةٍ، فَالْحَقْ بِنا نُوَاسِك، فَقلْت حِين قرأْتُهَا: وَهَذِهِ أَيْضًا مِنَ الْبَلاءِ فَتيَمَّمْتُ بِهَا التَّنُّور فَسَجرْتُهَا حَتَّى إِذَا مَضَتْ أَرْبَعُون مِن الْخَمْسِينَ وَاسْتَلْبَثِ الْوَحْىُ إِذَا رسولِ رسولِ الله ﷺ يَأْتِينِي، فَقَالَ: إِنَّ رسولَ الله ﷺ يَأْمُرُكَ أَنْ تَعْتزِلَ امْرأَتكَ، فقُلْتُ: أُطَلِّقُهَا، أَمْ مَاذا أَفعلُ؟ قَالَ: لاَ بَلْ اعتزِلْهَا فَلاَ تقربَنَّهَا، وَأَرْسلَ إِلى صَاحِبيَّ بِمِثْلِ ذلِكَ. فَقُلْتُ لامْرَأَتِي: الْحقِي بِأَهْلكِ فَكُونِي عِنْدَهُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللَّهُ في هذَا الأَمر، فَجَاءَت امْرأَةُ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ رسولَ الله ﷺ فقالتْ لَهُ: يَا رَسُولَ الله إِنَّ هِلالَ بْنَ أُميَّةَ شَيْخٌ ضَائعٌ ليْسَ لَهُ خادِمٌ، فهلْ تَكْرهُ أَنْ أَخْدُمهُ؟ قَالَ: «لا، وَلَكِنْ لاَ يَقْربَنَّك» فَقَالَتْ: إِنَّهُ وَاللَّه مَا بِهِ مِنْ حَركةٍ إِلَى شَيءٍ، وَوَاللَّه مَا زَالَ يَبْكِي مُنْذُ كَانَ مِنْ أَمْرِهِ مَا كَانَ إِلَى يَوْمِهِ هَذَا. فَقَال لِي بعْضُ أَهْلِي: لَو اسْتأَذنْت رسولِ اللهِ ﷺ في امْرَأَتِك، فقَدْ أَذن لامْرأَةِ هِلالِ بْنِ أُمَيَّةَ أَنْ تَخْدُمَهُ؟ فقُلْتُ: لاَ أَسْتَأْذِنُ فِيهَا رسولَ الله ﷺ، ومَا يُدْريني مَاذا يَقُولُ رسولُ الله ﷺ إِذَا اسْتَأْذَنْتُهُ فِيهَا وَأَنَا رَجُلٌ شَابٌّ فلَبِثْتُ بِذلك عشْر ليالٍ، فَكَمُلَ لَنا خمْسُونَ لَيْلَةً مِنْ حينَ نُهي عَنْ كَلامنا.

ثُمَّ صَلَّيْتُ صَلاَةَ الْفَجْرِ صباحَ خمْسينَ لَيْلَةً عَلَى ظهْرِ بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِنَا، فَبينَا أَنَا جَالسٌ عَلَى الْحال الَّتي ذكَر اللَّهُ تعالَى مِنَّا، قَدْ ضَاقَتْ عَلَيَّ نَفْسِي وَضَاقَتْ عَلَيَّ الأَرضُ بمَا رَحُبَتْ، سَمعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أوفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بأَعْلَى صَوْتِهِ: يَا كَعْبُ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ، فخرَرْتُ سَاجِدًا، وَعَرَفْتُ أَنَّهُ قَدْ جَاءَ فَرَجٌ فَآذَنَ رسولُ الله ﷺ النَّاس بِتوْبَةِ الله ﷻ عَلَيْنَا حِين صَلَّى صَلاة الْفجْرِ فذهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُوننا، فذهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرُونَ، وَرَكَضَ رَجُلٌ إِلَيَّ فرَسًا وَسَعَى ساعٍ مِنْ أَسْلَمَ قِبَلِي وَأَوْفَى عَلَى الْجَبلِ، وكَان الصَّوْتُ أَسْرَعَ مِنَ الْفَرَسِ، فلمَّا جَاءَنِي الَّذي سمِعْتُ صوْتَهُ يُبَشِّرُنِي نَزَعْتُ لَهُ ثَوْبَيَّ فَكَسَوْتُهُمَا إِيَّاهُ ببشارَته واللَّه مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يوْمَئِذٍ، وَاسْتَعَرْتُ ثَوْبَيْنِ فَلَبسْتُهُمَا وانْطَلَقتُ أَتَأَمَّمُ رسولَ الله ﷺ يَتَلَقَّانِي النَّاسُ فَوْجًا فَوْجًا يُهَنِّئُونني بِالتَّوْبَةِ وَيَقُولُون لِي: لِتَهْنِكَ تَوْبَةُ الله عَلَيْكَ، حتَّى دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَإِذَا رسولُ الله ﷺ جَالِسٌ حَوْلَهُ النَّاسُ، فَقَامَ طلْحَةُ بْنُ عُبَيْد اللهِ رضي الله عنه يُهَرْوِل حَتَّى صَافَحَنِي وهَنَّأَنِي، واللَّه مَا قَامَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهاجِرِينَ غَيْرُهُ، فَكَان كَعْبٌ لاَ يَنْساهَا لِطَلحَة. قَالَ كَعْبٌ: فَلَمَّا سَلَّمْتُ عَلَى رَسُولِ الله ﷺ، قَالَ: وَهوَ يَبْرُقُ وَجْهُهُ مِنَ السُّرُور «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَوْمٍ مَرَّ عَلَيْكَ، مُذْ ولَدَتْكَ أُمُّكَ».

فقُلْتُ: أمِنْ عِنْدِكَ يَا رَسُول اللَّهِ أَم مِنْ عِنْد الله؟ قَالَ: لا بَلْ مِنْ عِنْد الله ﷻ، وكانَ رسولُ الله ﷺ إِذَا سُرَّ اسْتَنارَ وَجْهُهُ حتَّى كَأَنَّ وجْهَهُ قِطْعَةُ قَمر، وكُنَّا نعْرِفُ ذلِكَ مِنْهُ، فلَمَّا جلَسْتُ بَيْنَ يدَيْهِ قُلتُ: يَا رسولَ اللَّهِ إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِن مَالِي صدَقَةً إِلَى اللَّهِ وإِلَى رَسُولِهِ.

فَقَالَ رَسُول الله ﷺ: «أَمْسِكْ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْر لَكَ».

فَقُلْتُ إِنِّي أُمْسِكُ سَهْمِي الَّذي بِخيْبَر. وَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله إِن الله تَعَالَى إِنَّما أَنْجَانِي

بالصِّدْقِ، وَإِنْ مِنْ تَوْبَتِي أَن لا أُحدِّثَ إِلَّا صِدْقًا ما بَقِيتُ، فوالله مَا علِمْتُ أَحَدًا مِنَ المسلمِين أَبْلاهُ اللَّهُ تَعَالَى في صدْق الْحَديث مُنذُ ذَكَرْتُ ذَلكَ لِرسُولِ الله ﷺ أَحْسَنَ مِمَّا أَبْلاَنِي اللَّهُ تَعَالَى، وَاللَّهِ مَا تَعمّدْت كِذْبَةً مُنْذُ قُلْت ذَلِكَ لرَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَى يَوْمِي هَذَا، وَإِنِّي لأَرْجُو أَنْ يَحْفظني اللَّهُ تَعَالى فِيمَا بَقِي، قَالَ: فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾﴾ [التوبة: ١١٧، ١١٧}

قالَ كعْبٌ: واللَّهِ مَا أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيَّ مِنْ نِعْمَةٍ قَطُّ بَعْدَ إِذْ هَدانِي اللَّهُ لِلإِسْلام أَعْظَمَ في نَفسِي مِنْ صِدْقي رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَن لاَّ أَكُونَ كَذَبْتُهُ، فأهلك كَمَا هَلَكَ الَّذِينَ كَذَبُوا إِن الله تَعَالَى قَالَ للَّذِينَ كَذَبُوا حِينَ أَنزَلَ الْوَحْيَ شَرَّ مَا قَالَ لأحدٍ، فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ إِذَا ٱنقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمْ ۖ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾ يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْاْ عَنْهُمْ ۖ فَإِن تَرْضَوْاْ عَنْهُمْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يَرْضَىٰ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [التوبة: ٩٥،٩٦].

قَالَ كَعْبٌ: كنَّا خُلِّفْنَا أَيُّهَا الثَّلاَثَةُ عَنْ أَمْر أُولئِكَ الَّذِينَ قَبِلَ مِنْهُمْ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ حَلَفوا لَهُ، فبايعَهُمْ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمْ، وِأرْجَأَ رَسولُ اللَّهِ ﷺ أمْرَنا حَتَّى قَضَى اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ

بِذَلكَ، قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ﴾ وليْسَ الَّذي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفنا تَخَلُّفُنا عَن الغَزْو، وَإِنَّمَا هُوَ تَخْلَيفهُ إِيَّانَا وإرجاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ واعْتذَرَ إِليْهِ فَقَبِلَ مِنْهُ. مُتَّفَقٌ عليه.

وفي رواية: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ في غَزْوةِ تَبُوك يَوْمَ الخميسِ، وَكَان يُحِبُّ أَنْ يَخْرُجَ يَوْمَ الخمِيس.

وفي رِوَايةٍ: «وَكَانَ لاَ يَقدُمُ مِنْ سَفَرٍ إِلاَّ نهَارًا في الضُّحَى. فَإِذَا قَدِم بَدَأَ بالمْسجدِ فصلَّى فِيهِ ركْعتيْنِ ثُمَّ جَلَس فِيهِ».

وعن عبدِ الله بن كعبِ بنِ مالكٍ، وكان قائِدَ كعبٍ رضي الله عنه مِنْ بَنِيهِ حِينَ عمِيَ، قَالَ: سَمِعتُ كَعْبَ بنَ مالكٍ رضي الله عنه يُحَدِّثُ بحَديثِهِ حينَ تَخلَّفَ عن رسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ.

قوله: (وكان قائِدَ كعبٍ رضي الله عنه مِنْ بَنِيهِ حِينَ عمِيَ) فيه: بر الوالدين، ولا سيما عند الضعف والعجز، كهذا الحال الذي الحاجة فيه للولد اضطرارية؛ ولهذا الله ﷻ نص عليه، وقال: ﴿*وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ إِمَّا يَبۡلُغَنَّ عِندَكَ ٱلۡكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوۡ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفّٖ وَلَا تَنۡهَرۡهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوۡلٗا كَرِيمٗا ٢٣

وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴿٢٤﴾﴾ [الإسراء].

(حينَ تَخلَّفَ عن رسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ) كانت غزوة تبوك في شهر رجب السنة التاسعة من الهجرة، خرج النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لغزو الروم فيها، فقد بلغه أن الروم تجمَّع فخرج إليهم، وهذا من شجاعته ﷺ خروجه إلى عدوه.

وهذه آخر غزوات النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ.

وقد استُدِل بغزو النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ في شهر رجب على جواز القتال في الأشهر الحُرم، ولكن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لم يغزهم حتى بلغه أن الروم يجمعون له، فالقتال في الأشهر الحرم باقٍ على حرمته، قال تعالى: ﴿يَسۡـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهۡرِ ٱلۡحَرَامِ قِتَالٖ فِيهِۖ قُلۡ قِتَالٞ فِيهِ كَبِيرٞۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفۡرُۢ بِهِۦ وَٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ وَإِخۡرَاجُ أَهۡلِهِۦ مِنۡهُ أَكۡبَرُ عِندَ ٱللَّهِۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَكۡبَرُ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۗ﴾ [البقرة: ٢١٧]، (قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ) أي: عظيم.

وقال سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ﴾ [الْمَائِدَةِ: ٢]. وَقد كَانَ عَطَاءٌ يَقُولُ: الْآيَةُ مُحْكَمَةٌ، وَلَا يَجُوزُ الْقِتَالُ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، وَيَحْلِفُ عَلَى ذَلِكَ. «تفسير القرطبي»(٣/ ٤٤).

وقال ابنُ القيم رحمه الله في «زاد المعاد» (٣/ ٣٠٢) عن آية المائدة مؤيدًا القولَ بعدم النسخ: وَهِيَ مِنْ آخِرِ الْقُرْآنِ نُزُولًا، وَلَيْسَ فِيهَا مَنْسُوخٌ.

وقال رحمه الله -بعد ذلك عن آيتي البقرة والمائدة السابِقَتين-: فَهَاتَانِ آيَتَانِ مَدَنِيَّتَانِ، بَيْنَهُمَا فِي النُّزُولِ نَحْوُ ثَمَانِيَةِ أَعْوَامٍ، وَلَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَا سُنَّةِ رَسُولِهِ نَاسِخٌ لِحُكْمِهِمَا، وَلَا أَجْمَعَتِ الْأُمَّةُ عَلَى نَسْخِهِ، وَمَنِ اسْتَدَلَّ عَلَى نَسْخِهِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَقَٰتِلُواْ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً﴾ [التوبة: ٣٦]، وَنَحْوِهَا مِنَ الْعُمُومَاتِ، فَقَدِ اسْتَدَلَّ عَلَى النَّسْخِ بِمَا لَا يَدُلُّ عَلَيْهِ. اهـ المراد.

أما قول السيوطي رحمه الله:

وحَقُّ تَقْوَاهُ فِيمَا صَحَّ من أَثَرٍ ... وفي الحَرامِ قِتَالٌ للأُلَى كَفَرُوا

فلم يصح للسيوطي رحمه الله شيءٌ في هذا البيت من النسخ.

(وحَقُّ تَقْوَاهُ فِيمَا صَحَّ من أَثَرٍ) يشير إلى قول الله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢]. أي: أنها منسوخة، والصحيح أن الآية مطلقة تُقيَّد بالأدلة الأخرى، فالمراد: اتقوا الله حق تقاته فيما استطعتم؛ لقوله تعالى: ﴿فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦]، وقوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦].

(وفي الحَرامِ قِتَالٌ للأُلَى كَفَرُوا) يشير إلى قوله تعالى: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۚ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ

ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وهذا قول جمهور العلماء أن النهي منسوخ، وَأَنَّ قِتَالَ الْمُشْرِكِينَ فِي الْأَشْهُرِ الْحُرُمِ مُبَاحٌ. «تفسير القرطبي»(٣/٤٣).

وكان النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ لا يغزو في الأشهر الحرم ابتداءً، إلا أن يُغْزَى.

أخرج الإمامُ أحمد في «مسنده» (٢٢/٤٣٨)من طريق لَيْثٍ، عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ، عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: «لَمْ يَكُنْ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَغْزُو فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِلَّا أَنْ يُغْزَى-أَوْ يُغْزَوْا-فَإِذَا حَضَرَ ذَاكَ، أَقَامَ حَتَّى يَنْسَلِخَ» (١).

ودلَّ حديث جابرٍ رضي الله عنه على جواز قتال المشركين في الشهر الحرام، إذا بدأُوا بقتال المسلمين، وهذا يسمى جهادَ دفعٍ.

قال ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد»(٣/٣٠١): وَلَا خِلَافَ فِي جَوَازِ الْقِتَالِ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ إِذَا بَدَأَ الْعَدُوُّ، إِنَّمَا الْخِلَافُ أَنْ يُقَاتَلَ فِيهِ ابْتِدَاءً، فَالْجُمْهُورُ جَوَّزُوهُ، وَقَالُوا: تَحْرِيمُ الْقِتَالِ فِيهِ مَنْسُوخٌ، وَهُوَ مَذْهَبُ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ رحمهم الله.

وَذَهَبَ عطاء وَغَيْرُهُ إِلَى أَنَّهُ ثَابِتٌ غَيْرُ مَنْسُوخٍ، وَكَانَ عطاء يَحْلِفُ بِاللَّهِ مَا يَحِلُّ الْقِتَالُ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ، وَلَا نَسَخَ تَحْرِيمَهُ شَيْءٌ.

---

(١) الحديث حسن. وأبو الزبير وإن كان مدلسًا وقد عنعن، إلا أنه إذا كان الراوي عنه الليث بن سعد فإنه لا تضر عنعنته. يراجع «جامع التحصيل».

وقال ابنُ مفلح في «الفروع»(١٠/٤٧): وَيَجُوزُ القتال في الشهر الحرام دفعًا إجماعًا. اهـ.

والأشهر الحُرُم: ذو القَعدة، وذوالحِجَّة، وشهر الله المحرم، ورجب.

وسبب هذه الغزوة هو ما تقدم الإشارة إليه:

أنه بلغ النَّبِيَّ ﷺ أن الروم تجمعُ جموعًا من القبائل لحرب المسلمين.

قال الحافظ في «فتح الباري»(تحت رقم٤٤١٥): وَكَانَ السَّبَبُ فِيهَا مَا ذكره ابن سَعْدٍ وَشَيْخُهُ-أي: شيخ ابن سعد وهو محمد بن عمر الواقدي-وَغَيْرُهُ قَالُوا: بَلَغَ الْمُسْلِمِينَ مِنَ الأنباط الَّذين يقدمُونَ بالزيت من الشَّام إلى المدينة أَنَّ الرُّومَ جَمَعَتْ جُمُوعًا، وَأَجْلَبَتْ مَعَهُمْ لَخْمَ وَجُذَامَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ مُتَنَصِّرَةِ الْعَرَبِ، وَجَاءَتْ مُقَدِّمَتُهُمْ إِلَى الْبَلْقَاءِ، فَنَدَبَ النَّبِيُّ ﷺ النَّاسَ إِلَى الْخُرُوجِ، وَأَعْلَمَهُمْ بِجِهَةِ غَزْوِهِمْ.

قوله: (قَالَ كعبٌ: لَمْ أَتَخَلَّفْ عَنْ رسولِ الله ﷺ في غَزْوَةٍ غزاها قط إلا في غزوة تَبُوكَ. غَيْرَ أَنِّي قَدْ تَخَلَّفْتُ في غَزْوَةِ بَدْرٍ، ولَمْ يُعَاتَبْ أَحَدٌ تَخَلَّفَ عَنْهُ، إِنَّمَا خَرَجَ رسولُ الله ﷺ والمُسْلِمُونَ يُرِيدُونَ عِيرَ قُرَيْشٍ، حَتَّى جَمَعَ الله تَعَالَى بَيْنَهُمْ وبَيْنَ عَدُوِّهِمْ عَلَى غَيْرِ ميعادٍ).

هذا يفيد أن كعب بن مالك رضي الله عنه شهد مع النبي ﷺ الغزوات كلها، سوى غزوتين تخلف فيها، وقد جاء صريحًا في روايةٍ لمسلم: أَنَّهُ لَمْ يَتَخَلَّفْ عَنْ رَسُولِ اللهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ غَزَاهَا قَطُّ، غَيْرَ غَزْوَتَيْنِ. وهما غزوة بدر وتبوك.

قوله: (ولَقَدْ شَهِدْتُ مَعَ رسولِ الله ﷺ لَيلَةَ العَقَبَةِ[٢] حينَ تَوَاثَقْنَا عَلَى الإِسْلامِ، وما أُحِبُّ أَنَّ لي بِهَا مَشْهَدَ بَدْرٍ، وإِنْ كَانَتْ بدرٌ أَذْكَرَ في النَّاسِ مِنْهَا).

---

(٢) قال النووي رحمه الله في «شرح صحيح مسلم» شرح حديث كعبٍ

قال الشيخ ابن عثيمين في «شرح رياض الصالحين»(١/ ١٣٢): ذكر بيعته النبيَّ صلي الله عليه وسلم ليلة العقبة في منى، حيث بايعوا النبي صلي الله عليه وسلم على الإسلام، وقال: إنني لا أحب أن يكون لي بدلها بدر. يعني: هي أحب إليه من غزوة؛ لأنها بيعة عظيمة. لكن يقول: كانت بدر أذكرَ في الناس منها، أي: أكثر ذكرًا؛ لأن الغزوة اشتهرت بخلاف البيعة. على كل حالٍ، رضي الله عنه يسلي نفسه بأنه إن فاتته بدر فقد حصلت له بيعة العقبة، فرضي الله عن كعب وعن جميع الصحابة. اهـ.

قوله: (وكانَ مِنْ خَبَرِي حينَ تَخَلَّفْتُ عَنْ رسولِ اللهِ ﷺ في غَزْوَةِ تَبُوكَ أَنِّي لم أَكُنْ قَطُّ أَقْوى ولا أَيْسَرَ مِنِّي حِينَ تَخَلَّفْتُ عنْهُ في تِلكَ الغَزْوَةِ، وَالله ما جَمَعْتُ قَبْلَهَا رَاحِلَتَيْنِ قَطُّ حَتَّى جَمَعْتُهُمَا في تِلْكَ الغَزْوَةِ، وَلَمْ يَكُنْ رسولُ الله ﷺ يُرِيدُ غَزْوَةً إِلَّا وَرَّى بِغَيرِها، حَتَّى كَانَتْ تلْكَ الغَزْوَةُ، فَغَزَاها رسولُ الله ﷺ في حَرٍّ شَديدٍ، واسْتَقْبَلَ سَفَرًا بَعِيدًا وَمَفَازًا، وَاستَقْبَلَ عَدَدًا كَثِيرًا، فَجَلَّى للْمُسْلِمينَ أَمْرَهُمْ؛ ليتَأَهَّبُوا أُهْبَةَ غَزْوِهِمْ فأَخْبرَهُمْ بوَجْهِهِمُ الَّذِي يُرِيدُ، والمُسلِمونَ مَعَ رسولِ الله كثيرٌ وَلا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ بذلِكَ الدّيوَانَ).

فيه: أن عدد جيش المسلمين في غزوة تبوك كانوا عددًا كبيرًا، فهو يقول: (والمُسلِمونَ مَعَ رسولِ الله كثيرٌ وَلا يَجْمَعُهُمْ كِتَابٌ حَافِظٌ، يُرِيدُ بذلِكَ الدّيوَانَ)

وعلى أشهر الروايات أنهم كانوا ثلاثين ألفًا. وجاء في رواية لمسلم (٢٧٦٩): (وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَاسٍ كَثِيرٍ يَزِيدُونَ عَلَى عَشَرَةِ آلَافٍ).

الطويل في غزوة تبوك: الْعَقَبَةُ الَّتِي فِي طَرَفِ مِنًى التى يُضَافُ إِلَيْهَا جَمْرَةَ الْعَقَبَةِ.

قال النووي في «شرح صحيح مسلم» (١٧/٩٩-١٠٠)-شرح حديث كعب-: قَوْلُهُ: (وَغَزَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِنَاسٍ كَثِيرٍ يَزِيدُونَ عَلَى عَشَرَةِ آلَافٍ) هَكَذَا وَقَعَ هُنَا زِيَادَةٌ عَلَى عَشَرَةِ آلَافٍ وَلَمْ يُبَيِّنْ قَدْرَهَا، وَقَدْ قَالَ أَبُو زُرْعَةَ الرَّازِيُّ: كَانُوا سَبْعِينَ أَلْفًا، وقال ابن إِسْحَاقَ: كَانُوا ثَلَاثِينَ أَلْفًا، وَهَذَا أَشْهَرُ، وَجَمَعَ بَيْنَهُمَا بَعْضُ الْأَئِمَّةِ: بِأَنَّ أَبَا زُرْعَةَ عَدَّ التابع والمتبوع، وابن إِسْحَاقَ عَدَّ الْمَتْبُوعَ فَقَطْ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ.

قوله: (قَالَ كَعْبٌ: فَقَلَّ رَجُلٌ يُرِيدُ أَنْ يَتَغَيَّبَ إلاَّ ظَنَّ أَنَّ ذلِكَ سيخْفَى بِهِ ما لَمْ يَنْزِلْ فِيهِ وَحْيٌ مِنَ الله، وَغَزا رَسُول الله ﷺ تِلْكَ الغَزوَةَ حِينَ طَابَت الثِّمَارُ وَالظِّلَالُ، فَأَنَا إِلَيْهَا أَصْعَرُ[٣]، فَتَجَهَّزَ رسولُ الله ﷺ وَالمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وطَفِقْتُ أَغْدُو؛ لكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُ، فأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، وأَقُولُ في نفسي: أَنَا قَادِرٌ عَلَى ذلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمادى بي حَتَّى اسْتَمَرَّ بالنَّاسِ الجِدُّ، فأَصْبَحَ رسولُ الله ﷺ غَادِيًا والمُسْلِمُونَ مَعَهُ، وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيئًا، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بي حَتَّى أَسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ، فيَا لَيْتَني فَعَلْتُ، ثُمَّ لم يُقَدَّرْ ذلِكَ لي، فَطَفِقْتُ إِذَا خَرَجْتُ في النَّاسِ بَعْدَ خُرُوجِ رَسُولِ اللهِ ﷺ يَحْزُنُنِي أَنِّي لا أَرَى لي أُسْوَةً، إلاّ رَجُلًا مَغْمُوصًا[٤]عَلَيْهِ في النِّفَاقِ، أَوْ رَجُلًا مِمَّنْ عَذَرَ اللهُ تَعَالَى مِنَ الضُّعَفَاءِ)

---

(٣) أَيْ: أَمْيَلُ. كما في «النهاية»(٣/ ٣١).

(٤) أَيْ: مَطْعون فِي دِينه مُتَّهم بالنِّفاق. كما في «النهاية»(٣/ ٣٨٦).

وقد كان عدد الذين تخلفوا من المنافقين: بضعة وثمانين رجلًا، كما قال كعب بن مالك: «فَلَمَّا فَعَلَ ذَلِكَ جَاءَهُ الْمُخَلَّفُونَ، فَطَفِقُوا يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ وَيَحْلِفُونَ لَهُ، وَكَانُوا بِضْعَةً وَثَمَانِينَ رَجُلًا»، ورأس المتخلفين من المنافقين عبدالله بن أُبَي بن سلول.

وتخلف من غير المنافقين ومن غير المستضعفين ثلاثة: مُرَارَة بن الربيع، وكعب بن مالك، وهلال بن أمية.

قال الله ﷻ: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾[التوبة: ١١٨].

والثلاثة الذين خُلِّفوا يجمع أسماءهم (مكة): الميم: مرارة بن الربيع، والكاف: كعب بن مالك، والهاء: هلال بن أمية. (الفائدة من دروس والدي رحمه الله).

وكان قد تخلَّف أبو خيثمة أيضًا، لكنه أدركته رحمة الله فلحقهم، قال كعب بن مالك: «فَبَيْنَمَا هُوَ عَلَى ذَلِكَ-أي: جالس-رَأَى رَجُلًا مُبَيِّضًا يَزُولُ بِهِ السَّرَابُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «كُنْ أَبَا خَيْثَمَةَ» فَإِذَا هُوَ أَبُو خَيْثَمَةَ الْأَنْصَارِيُّ، وَهُوَ الَّذِي تَصَدَّقَ بِصَاعِ التَّمْرِ حِينَ لَمَزَهُ الْمُنَافِقُونَ» رواه مسلم.

والذين تخلَّفوا عن غزوة تبوك:

إما مستخلَف، وإما معذور، وإما منافق، وإما بعض من زلَّ وأخطأ.

قال ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد»(٣/ ٥٠٣): لَمْ يَكُنْ يَتَخَلَّفُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِلَّا أَحَدُ رِجَالٍ ثَلَاثَةٍ: إِمَّا مَغْمُوصٌ عَلَيْهِ فِي النِّفَاقِ، أَوْ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْأَعْذَارِ، أَوْ مَنْ خَلَّفَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَاسْتَعْمَلَهُ عَلَى الْمَدِينَةِ، أَوْ خَلَّفَهُ لِمَصْلَحَةٍ.

وقال الحافظ ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية»(٧/ ٢٠٠): كَانَ الْمُتَخَلِّفُونَ عَنْ غَزْوَةِ تَبُوكَ أَرْبَعَةَ أَقْسَامٍ: مَأْمُورُونَ مَأْجُورُونَ كَعَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ(٥) وَمُحَمَّدِ بْنِ مَسْلَمَةَ وَابْنِ أُمِّ مَكْتُومٍ، وَمَعْذُورُونَ وَهُمُ الضُّعَفَاءُ وَالْمَرْضَى وَالْمُقِلُّونَ وَهُمُ الْبَكَّاءُونَ(٦)، وَعُصَاةٌ مُذْنِبُونَ وَهُمُ: الثَّلَاثَةُ وَأَبُو لُبَابَةَ وَأَصْحَابُهُ الْمَذْكُورُونَ، وَآخَرُونَ مَلُومُونَ مَذْمُومُونَ وَهُمُ الْمُنَافِقُونَ.

هذا الحديث العظيم نذكرُ بعضًا من فوائده مع ما تقدم، ومع اختصار في بعض ألفاظه عند الإمام النووي:

فيه: التورية في الحروب، فقد كان النبي ﷺ يظهر لهم أنه يريد جهةً، مثلًا: يسأل عن طريق جهة كذا، فيتبادر إلى ذهن السامع أنه يريد تلك الجهة، ولكنه يريد جهة أخرى، يقول هذا من باب التوريَة، وهذا من حُسنِ السياسة وكتمان السر.

---

(٥) أخرج البخاري (٤٤١٦)، ومسلم (٢٤٠٤) عن سعد بن أبي وقاص، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ خَرَجَ إِلَى تَبُوكَ، وَاسْتَخْلَفَ عَلِيًّا، فَقَالَ: أَتُخَلِّفُنِي فِي الصِّبْيَانِ وَالنِّسَاءِ؟ قَالَ: «أَلَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ، مِنْ مُوسَى إِلَّا أَنَّهُ لَيْسَ نَبِيٌّ بَعْدِي».

(٦) هؤلاء أشار إليهم القرآن الكريم. قال ربنا سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ ۞ إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَسْتَـْٔذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَآءُ ۚ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٩٣﴾﴾[التوبة: ٩١-٩٣].

وسُمُّوا البكَّائين: لأنهم استحملوا رَسُول الله ﷺ، فَلَمْ يَجدوا عِنْده مَا يحملهم عَلَيْهِ، فتَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ. «الدرر في اختصار المغازي والسير» (٢٣٩) لابن عبدالبر.

-وفيه: وجوب النفير للجهاد إذا استنفر الإمام الناس.

وكما روى البخاري (٢٧٨٣)، ومسلم (١٣٥٣)عن ابْنِ عَبَّاسٍ رضي الله عنهما، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا هِجْرَةَ بَعْدَ الفَتْحِ، وَلَكِنْ جِهَادٌ وَنِيَّةٌ، وَإِذَا اسْتُنْفِرْتُمْ فَانْفِرُوا»(٧).

-وفيه: ذِكْرُ الشخص قصته التي حَدَثت له وإن كان فيها لوم عليه؛ للمصلحة والعبرة والتعليم، فكعب بن مالك ساقَ قصته؛ للاستفادة، والتحذير من المعصية والنفاق، والحث على لزوم الصدق والآداب(٨).

وليس فيه دليل لإيراد قَصص التائبين كما يفعل بعضهم، يشغلون الناس عن الكتاب والسنة بذكر قصص التائبين، والكثير منها الله أعلم بصحتها، وبعضها لا يجوز ذكرها أصلًا؛ لأنها قد تُجرِّئ بعض الطائشين على الفعل نفسِه، كالزنا، وشرب الخمر، والسرقة، كما سمعنا، ويقول: يُجرِّب بنفسه ثم يتوب، ولكن حسب المصلحة والحاجة، ومع تحرِّي الأشياء الثابتة.

---

(٧) وهذا أحد المواضع التي يجب الجهاد فيها وجوبًا عينيًّا على كل قادرٍ من الرجال.

الثاني: إذا هجم على البلاد عدوٌّ وجب عليهم دفعه، فإن لم يستطيعوا وجب على إخوانهم المسلمين معاونتُهم.

الثالث: عند التحام القتال، كما قال تعالى: ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾[التوبة: ١٦].

هذه ثلاثة مواضع يذكرها أهل العلم يجب فيها الجهاد وجوبًا عينيًّا.

(٨) ومنه الحديث الآتي:

روى البخاري (٧٤٦٥)، ومسلم (٧٧٥)عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ طَرَقَهُ وَفَاطِمَةَ بِنْتَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَيْلَةً، فَقَالَ لَهُمْ: «أَلاَ تُصَلُّونَ»، قَالَ عَلِيٌّ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا أَنْفُسُنَا بِيَدِ اللَّهِ، فَإِذَا شَاءَ أَنْ يَبْعَثَنَا بَعَثَنَا، فَانْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حِينَ قُلْتُ ذَلِكَ، وَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، ثُمَّ سَمِعْتُهُ وَهُوَ مُدْبِرٌ يَضْرِبُ فَخِذَهُ وَيَقُولُ: (وَكَانَ الإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا) [الكهف: ٥٤].

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في «فتح الباري» (تحت رقم ١١٢٧): وَفِيه منقبة لعَلِي حَيْثُ لَمْ يَكْتُمْ مَا فِيهِ عَلَيْهِ أَدْنَى غَضَاضَةً فَقَدَّمَ مَصْلَحَةَ نَشْرِ الْعِلْمِ وَتَبْلِيغِهِ عَلَى كتمه.

قال الإمام أحمد رحمه الله: وَمَا أَحْوَجَ النَّاسَ إِلَى قَاصٍّ صَدُوقٍ. كما في «تلبيس إبليس» (١١١) لابن الجوزي رحمه الله.

-وفيه: ترك التسويف في العمل الصالح، وأنه ينبغي العزم والجد، فالتسويف مَضَرة، وللتأخير آفات، وهذا مأخوذ من قوله رضي الله عنه: وطَفِقْتُ أَغْدُو لكَيْ أَتَجَهَّزَ مَعَهُ، فأَرْجِعُ وَلَمْ أَقْضِ شَيْئًا، وأَقُولُ في نفسي: أنَا قَادِرٌ عَلَى ذلِكَ إِذَا أَرَدْتُ، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمادى بي حَتَّى اسْتَمَرَّ بالنَّاسِ الْجِدُّ، فأَصْبَحَ رسولُ الله ﷺ غَادِيًا والمُسْلِمُونَ مَعَهُ وَلَمْ أَقْضِ مِنْ جِهَازي شَيْئًا، ثُمَّ غَدَوْتُ فَرَجَعْتُ وَلَمْ أَقْضِ شَيئًا، فَلَمْ يَزَلْ يَتَمَادَى بي حَتَّى أَسْرَعُوا وتَفَارَطَ الغَزْوُ، فَهَمَمْتُ أَنْ أَرْتَحِلَ فَأُدْرِكَهُمْ.

فالتسويف في الأعمال الخيرية سبب للحرمان(٩).

---

(٩) وقال الشيخ ابن عثيمين في «شرح رياض الصالحين»(١/ ١٣٤) في شرح فوائد حديث كعب: وفي هذا دليل على أن الإنسان إذا لم يبادر بالعمل الصالح فإنه حري أن يحرم إياه، كما قال الله سبحانه: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِى طُغْيَـٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾﴾ (الأنعام: ١١٠) فالإنسان إذا علم الحق ولم يقبله ويذعن له من أول وهلة، فإن ذلك قد يفوته ويحرم إياه-والعياذ بالله-، كما أن الإنسان إذا لم يصبر علي المصيبة من أول الأمر فإنه يحرم أجرها؛ لقول النبي ﷺ: «إنما الصبر عند الصدمة الأولي».

فعليك-يا أخي-أن تبادر بالأعمال الصالحة، ولا تتأخر فتتمادى بك الأيام، ثم تعجز وتكسل، ويغلب عليك الشيطان والهوى فتتأخر، فها هو رضي الله عنه كل يوم يقول: أخرج، ولكن تمادى به الأمر ولم يخرج.

ثم ذكر رحمه الله بعد ذلك أننا نستفيد منه: إذا عوَّد الإنسان نفسه على التأخير أخره الله عز وجل. فبادر بالأعمال الصالحة من حين أن يأتي طلبُها من عند الله عز وجل.

وهناك مقالة ذكرها ابن الجوزي في «صيد الخاطر»(٢٠٦): وإياك والتسويف؛ فإنه أكبر جنود إبليس.

وقال ابن القيم: فَإِنَّ التَّمَنِّيَ رَأْسُ أَمْوَالِ الْمُفَالِيسِ(١٠).

-قوله: «وَلَيْتَنِي فَعَلْتُ» فيه التحسر والندم على فوات الخير.

-وفيه: جواز الاحتجاجِ بالقدر بعد التوبة من الذنب؛ مأخوذ من قوله: «فَلَمْ يُقَدَّرْ لِي ذَلِكَ»، أما احتجاج العاصي بالقدر فهذا باطل لا يجوز، فقد أرسل الله سبحانه الرسل مبشرين ومنذرين؛ لإقامة الحجة، قال تَعَالَى: ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةُۢ بَعۡدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ١٦٥﴾ [النساء: ١٦٥].

لكن بعد التوبة لا بأس به، ومن هذا الباب على أحد الأقوال ما أخرج البخاري (٦٦١٤)، ومسلم (٢٦٥٢) عن أبي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: احْتَجَّ آدَمُ وَمُوسَى، فَقَالَ لَهُ مُوسَى: يَا آدَمُ أَنْتَ أَبُونَا خَيَّبْتَنَا وَأَخْرَجْتَنَا مِنَ الجَنَّةِ، قَالَ لَهُ آدَمُ: يَا مُوسَى، اصْطَفَاكَ اللَّهُ بِكَلاَمِهِ، وَخَطَّ لَكَ بِيَدِهِ، أَتَلُومُنِي عَلَى أَمْرٍ قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَنِي بِأَرْبَعِينَ سَنَةً؟ فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى ثَلاَثًا.

قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى»(١١/٢٥٩)-في الجواب عن محاجة آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام-: لَكِنَّ وَجْهَ الْحَدِيثِ أَنَّ مُوسَى عليه السلام لَمْ يَلُمْ أَبَاهُ إلَّا لِأَجْلِ الْمُصِيبَةِ الَّتِي لَحِقَتْهُمْ؛ مِنْ أَجْلِ أَكْلِهِ مِنْ الشَّجَرَةِ، فَقَالَ لَهُ: لِمَاذَا أَخْرَجْتنَا وَنَفْسَك مِنْ الْجَنَّةِ؟ لَمْ يَلُمْهُ لِمُجَرَّدِ كَوْنِهِ أَذْنَبَ ذَنْبًا وَتَابَ مِنْهُ؛ فَإِنَّ مُوسَى يَعْلَمُ أَنَّ التَّائِبَ مِنْ الذَّنْبِ لَا يُلَامُ وَهُوَ قَدْ

(١٠)«زاد المعاد» (٢/٣٢٦).

تَابَ مِنْهُ أَيْضًا، وَلَوْ كَانَ آدَمَ يَعْتَقِدُ رَفْعَ الْمَلَامِ عَنْهُ لِأَجْلِ الْقَدَرِ لَمْ يَقُلْ: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾[الأعراف:٢٣]. اهـ المراد(١١).

-وفيه: الابتعاد عن مواضع التُّهَم؛ فقد أسيء الظن بكعب بن مالك بتخلفه عن الغزوة؛ فلهذا يقول رجلٌ من بني سَلِمة: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، حَبَسَهُ بُرْدَاهُ، وَنَظَرُهُ فِي عِطْفَيهِ)، قاله حميةً لله ولرسوله.

-وفيه: الرد على المغتاب؛ مأخوذ من قوله: (فَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: بِئْسَ مَا قُلْتَ وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ إِلَّا خَيْرًا)، وهذا من حق المسلم على أخيه المسلم ومن فيه خير: أن يرد غِيبتَه والكلام في عرضه، وينكر ذلك.

-فيه: مشاورة ذوي الرأي والخبرة والبصيرة؛ مأخوذ من قوله: (وأَسْتَعِيْنُ عَلى ذَلِكَ بِكُلِّ ذِي رأْيٍ مِنْ أَهْلِي).

-وفيه: السفر يوم الخميس.

---

(١١) وقد ذكر نحو هذا الجواب ابن القيم رحمه الله في «شفاء العليل»(١٨)عن شيخه ابن تيمية، ثم قال: وقد يتوجه جوابٌ آخر، وهو أن الاحتجاج بالقدر على الذنب ينفع في موضع ويضر في موضع، فينفع إذا احتج به بعد وقوعه والتوبة منه وترك معاودته كما فعل آدم، فيكون في ذكر القدر إذ ذاك من التوحيد ومعرفة أسماء الرب وصفاته وذكرها ما ينتفع به الذاكر والسامع، لأنه لا يدفع بالقدر أمرًا ولا نهيًا، ولا يبطل به شريعة، بل يخبر بالحق المحض على وجه التوحيد والبراءة من الحول والقوة، يوضحه:

أن آدم قال لموسى: أتلومني على أن عملت عملًا كان مكتوبًا علي قبل أن أخلق، فإذا أذنب الرجل ذنبًا ثم تاب منه توبة، وزال أمره حتى كأن لم يكن، فأنَّبه مؤنِّب عليه ولامه، حسُن منه أن يحتج بالقدر بعد ذلك، ويقول: هذا أمر كان قد قُدر عليّ قبل أن أخلق، فإنه لم يَدفع بالقدر حقًّا، ولا ذكره حجة له على باطل، ولا محذور في الاحتجاج به.

وأما الموضع الذي يضر الاحتجاج به ففي الحال والمستقبل، بأن يرتكب فعلًا محرمًا أو يترك واجبًا، فيلومه عليه لائم، فيحتج بالقدر على إقامته عليه وإصراره، فيبطل بالاحتجاج به حقًّا ويرتكب باطلًا، كما احتج به المصِرُّون على شركهم وعبادتهم غير الله. اهـ.

-وفيه: أن القادم من السفر يبدأ بالمسجد قبل أن يدخل بيته فيركع فيه ركعتين.

-وفيه: جلوس الإمام وكبير القدر للناس بعد أن يصلي في المسجد؛ مأخوذ من قوله: (وَكَانَ إِذَا قَدِمَ مِنْ سَفَرٍ بَدَأَ بِالْمَسْجِدِ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ ثُمَّ جَلَسَ لِلنَّاسِ).

-وفيه: شؤم النفاق والكذب، وأن من صفات المنافقين الأيمان الكاذبة، قال تعالى: ﴿سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٩٥﴾﴾ [التوبة: ٩٥].

-وفيه: الأخذ بالظاهر، والسرائر يتولاها الله سبحانه.

-وفيه أن التبسم قد يكون عن غضب، كما يكون عن سرور وفرح؛ مأخوذ من قوله: (فَلَمَّا سَلَّمْتُ تَبَسَّمَ تَبَسُّمَ الْمُغْضَبِ).

-وفيه: التربية على خُلُقِ الصدق.

فالصدق نجاة في الدنيا والآخرة، قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١١٩﴾﴾ [المائدة: ١١٩]، والصدق قد يكون فيه مرارة على النفس، لكن عواقبه حميدة وثماره جليلة.

الصِّدْقُ حُلْوٌ وَهُوَ الْمُرُّ ... وَالصِّدْقُ لا يَتْرُكُهُ الْحُرُّ

جَوْهَرَةُ الصِّدْقِ لَهَا زِينَةٌ ... يَحْسُدُهَا الْيَاقُوتُ وَالدُّرُّ

والجزاء من جنس العمل، مَن صدق صدق الله معه. روى النسائي في «سننه» (١٩٥٣) عَنْ شَدَّادِ بْنِ الْهَادِ ﷺ الحديث وفيه: أن النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ قال: «إِنْ تَصْدُقِ اللَّهَ يَصْدُقْكَ»، وهو في «الصحيح المسند» لوالدي الشيخ مقبل ﷺ (٤٧٤). وقد صدق كعب بن مالك وصاحباه فنجاهما الله.

-وفيه: توفيق الله سبحانه لكعب وصاحبيه وتثبيته لهم، وهذا من مناقبهم.

-وفيه: تزكية النَّبِيّ ﷺ لكعب بن مالك؛ مأخوذ من قوله ﷺ له: «أَمَّا هَذَا فقَدْ صَدَقَ، فَقُمْ حَتَّى يَقْضِيَ اللهُ فيكَ».

-ونستفيد: تربية النفس على الثبات، وعدم الإصغاء إلى من يزين الباطل، وهذا واضح فقد كان هنا محاولة شديدة لكعب بن مالك أن يرجع ويُكَذِّبَ نفسه، ويعتذر بما اعتذر به المنافقون، قال كعب: وَسَارَ رِجَالٌ مِنْ بَنِي سَلِمَة فاتَّبَعُوني فَقالُوا لِي: واللهِ مَا عَلِمْنَاكَ أَذْنَبْتَ ذَنْبًا قَبْلَ هذَا لَقَدْ عَجَزْتَ في أَنْ لا تكونَ اعتَذَرْتَ إِلَى رَسُول الله ﷺ بما اعْتَذَرَ إليهِ المُخَلَّفُونَ، فَقَدْ كَانَ كَافِيكَ ذَنْبَكَ اسْتِغْفَارُ رَسُول الله ﷺ لَكَ. قَالَ: فَوالله ما زَالُوا يُؤَنِّبُونَنِي حَتَّى أَرَدْتُّ أَنْ أَرْجعَ إِلَى رسولِ الله ﷺ فأُكَذِّبَ نَفْسِي.

-كما نستفيد: أن النصح من المُحب قد يكون في غير موضعه، فقد يأتي الدَّاءُ والبلاءُ من محب؛ لأنه ما يدرِك المصلحة والصواب، فيُنتبه.

-وفيه: التأسي بالنظير من أهل الفضل. فقد سأل كعب ﷺ: «هَلْ لَقِيَ هذَا مَعِيَ مِنْ أَحَدٍ؟ قَالُوا: نَعَمْ، لَقِيَهُ مَعَكَ رَجُلانِ قَالا مِثْلَ مَا قُلْتَ، وَقيلَ لَهُمَا مِثْلَ مَا قيلَ لَكَ، قَالَ: قُلْتُ: مَنْ هُما؟ قَالُوا: مُرَارَةُ بْنُ الرَّبيع الْعَمْرِيُّ، وهِلالُ بنُ أُمَيَّةَ الوَاقِفِيُّ؟ قَالَ: فَذَكَرُوا لِي رَجُلَيْنِ

صَالِحَيْنِ قَدْ شَهِدَا بَدْرًا فيهِما أُسْوَةٌ، قَالَ: فَمَضَيْتُ حِينَ ذَكَرُوهُما لِي»، فتأسَّى بهما كعب بن مالك رضي الله عنهم.

أما قوله: «قَدْ شَهِدَا بَدْرًا» هذا عُدَّ من أوهام الزهري(١٢).

-وفيه: قلة الكتَّاب في ذلك الزمن؛ لقول النبطي: مَنْ يَدُلُّ عَلَى كَعْبِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: فَطَفِقَ النَّاسُ يُشِيرُونَ لَهُ إِلَيَّ، حَتَّى جَاءَنِي فَدَفَعَ إِلَيَّ كِتَابًا مِنْ مَلِكِ غَسَّانَ، وَكُنْتُ كَاتِبًا، فَقَرَأْتُهُ.. (١٣).

-وفيه: شدة البلاء الذي حصل لهؤلاء الثلاثة؛ ولهذا كعب بن مالك يقول: (فَاجْتَنَبَنَا النَّاسُ-أَوْ قَالَ: تَغَيَّرُوا لَنَا-، حَتَّى تَنَكَّرَتْ لِي فِي نَفْسِي الأَرْض، فَمَا هِيَ بِالأَرْضِ الَّتِي أَعْرِفُ، فَلَبِثْنَا عَلَى ذِلِكَ خَمْسِينَ لَيْلَةً)، تنكرت أرضُ المدينة كأنها بلد أخرى، وضاقت أنفسهم فصارتْ لا تتحمَّلهم، وضاقت عليهم الأرض بما رحبت، أي: بما وسعت، الرحب: السعة.

-وفيه: جواز التخلف عن صلاة الجماعة للمهجور إذا كان لا يتحمل الحال؛ ولهذا تخلف هلال ومُرارة عن صلاة الجماعة، ولم ينكر عليهما النَّبيّ ﷺ.

---

(١٢) قال ابن القيم رحمه الله في «زاد المعاد» (٣/٥٠٥-٥٠٦): هَذَا الْمَوْضِعُ مِمَّا عُدَّ مِنْ أَوْهَامِ الزُّهْرِيِّ؛ فَإِنَّهُ لَا يُحْفَظُ عَنْ أَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْمَغَازِي وَالسِّيَرِ الْبَتَّةَ ذِكْرُ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ فِي أَهْلِ بَدْرٍ، لَا ابْنُ إِسْحَاقَ، وَلَا مُوسَى بْنُ عُقْبَةَ، وَلَا الأموي، وَلَا الْوَاقِدِيُّ، وَلَا أَحَدٌ مِمَّنْ عَدَّ أَهْلَ بَدْرٍ، وَكَذَلِكَ يَنْبَغِي أَلَّا يَكُونَا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؛ فَإِنَّ النَّبِيَّ ﷺ لَمْ يَهْجُرْ حاطبًا، وَلَا عَاقَبَهُ وَقَدْ جَسَّ عَلَيْهِ، وَقَالَ لعمر لَمَّا هَمَّ بِقَتْلِهِ: «وَمَا يُدْرِيكَ أَنَّ اللَّهَ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ، فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ»، وَأَيْنَ ذَنْبُ التَّخَلُّفِ مِنْ ذَنْبِ الْجَسِّ؟! قَالَ أَبُو الْفَرَجِ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: وَلَمْ أَزَلْ حَرِيصًا عَلَى كَشْفِ ذَلِكَ وَتَحْقِيقِهِ حَتَّى رَأَيْتُ أَبَا بَكْرٍ الْأَثْرَمَ قَدْ ذَكَرَ الزُّهْرِيَّ، وَذَكَرَ فَضْلَهُ وَحِفْظَهُ وَإِتْقَانَهُ، وَأَنَّهُ لَا يَكَادُ يُحْفَظُ عَلَيْهِ غَلَطٌ إِلَّا فِي هَذَا الْمَوْضِعِ، فَإِنَّهُ قَالَ: إِنَّ مرارة بن الربيع، وهلال بن أمية شَهِدَا بَدْرًا، وَهَذَا لَمْ يَقُلْهُ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَالْغَلَطُ لَا يُعْصَمُ مِنْهُ إِنْسَانٌ.

(١٣) قال الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في «شرح رياض الصالحين» (١/١٤٦): لأن الكُتَّاب في ذلك العهد قليلون جدًّا.

-وفيه: هجر العاصي لغرض شرعي، وباب هجر المسلم مُضيَّق؛ لأن النَّبِيّ ﷺ يقول: «لَا يَحِلُّ لِمُسْلِمٍ أَنْ يَهْجُرَ أَخَاهُ فَوْقَ ثَلَاثِ لَيَالٍ، يَلْتَقِيَانِ فَيُعْرِضُ هَذَا وَيُعْرِضُ هَذَا، وَخَيْرُهُمَا الَّذِي يَبْدَأُ بِالسَّلَامِ» رواه البخاري (٦٠٧٧) ومسلم (٢٥٦٠).

والذين هجرهم النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ معدودون على الأصابع، فالعاصي لا يُهجر إلا لمصلحة دينية إذا كان يؤثر فيه الهجر فيتوب من معصيته، أو يخفف من شره، أما إذا كان لا يبالي بمن هجره، أو يزيده الهجر عتوًّا ونفورًا فهذا لا يُهجر، ذكر مضمونَ هذا والدي الشيخ مقبل الوادعي رحمه الله، وهكذا ابن عثيمين في «شرح رياض الصالحين».

أما المبتدع يهجَر هذا عليه اتفاق السلف.

قال شيخ الإسلام في «مجموع الفتاوى»(٢٤/ ٢٩٢): وَمَنْ كَانَ مُبْتَدِعًا ظَاهِرَ الْبِدْعَةِ وَجَبَ الْإِنْكَارُ عَلَيْهِ، وَمِنْ الْإِنْكَارِ الْمَشْرُوعِ أَنْ يُهْجَرَ حَتَّى يَتُوبَ، وَمِنْ الْهَجْرِ امْتِنَاعُ أَهْلِ الدِّينِ مِنْ الصَّلَاةِ عَلَيْهِ؛ لِيَنْزَجِرَ مَنْ يَتَشَبَّهُ بِطَرِيقَتِهِ وَيَدْعُو إلَيْهِ، وَقَدْ أَمَرَ بِمِثْلِ هَذَا مَالِكُ بْنُ أَنَسٍ وَأَحْمَد بْنُ حَنْبَلٍ وَغَيْرُهُمَا مِنْ الْأَئِمَّةِ، وَاَللَّهُ أَعْلَمُ. اهـ.

وأما عوام أهل البدع الجهال الذين لا يعرفون الدين، هؤلاء لا يهجرون؛ لمصلحتهم ومن أجل دعوتهم.

قال الشيخ ربيع رحمه الله في «مجموع كتبه ورسائله وفتاواه»(٢/ ٣٥١): إنَّ أهل البدع الآن كثير يملئون الأرض والعياذ بالله! فنحن لا نهجر الجميعَ إنما هم محل دعوتنا، ندعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وأما الرؤوس المدَبِّرة والدعاة إلى الباطل في صحُفهم ومجلاتهم وكتبهم وأشرطتهم ومحاضراتهم وندواتهم ومواقعهم، هؤلاء يحارَبون ويُحذر منهم، ولا يجالَسون، ولا يُقرأ لهم، ولا يستفاد منهم.

وعوامُّهم المساكين المخدوعون هؤلاء ندعوهم إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، وهذا الكلام يؤيِّده كلامُ كثير من أئمة السنة ومعاملتهم، أنهم يدعون العوام إلى الله ﷻ ولا يهجُرونهم كما يهجرون أئمةَ السوء وأئمة الشر وأئمة الضلال.

افهموا هذا!؛ حتى لا يفهم بعضُكم أن كل من وقع في بدعة بُتَّ هجره، لا كلامَ معه ولا دعوة ولا شيء! لا، الدعوة قائمة حتى للكفار ولليهود والنصارى، والدعوة قائمة لأهل البدع أيضًا، لكن لا يَتميع الإنسان فيذهب يداخلهم ويأنس إليهم حتى يضيع، تُخلص لله ﷻ وتحاول إنقاذ هذا الذي وقع في الضلال بكتاب الله وبسنة رسول الله ﷺ بالعرض الجيد المقرون بالحجة والبرهان، فإن هذا سبب من أسباب الهداية، وقد حصل به هداية الكثير في كثير من البلدان.

جاء الإمام محمد بن عبدالوهاب والدنيا مظلمة، فجاهد بالدعوة إلى الله ﷻ وهدى الله على يديه الكثير، كانوا قبوريين وخرافيين وضالين واهتدوا على يديه، وشيخ الإسلام ابن تيمية كذلك، وأئمة الدعوة في الهند من السلفيين؛ جاءوا والدنيا مظلمة ونشروا هذه الدعوة، فاستجاب لهم الملايين، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعۡلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعۡلَمُ بِٱلۡمُهۡتَدِينَ ١٢٥﴾ [النحل: ١٢٥]. اهـ.

-فيه: امتثال الصحابة لأمر النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ، أبو قتادة من أقارب كعب بن مالك وبينهما المودة، لكنه مع ذلك لم يكلم كعب بن مالك، وهذا يفيد الحب في الله والبغض في الله، مأخوذ من قوله: (حَتَّى إِذَا طَال ذلِكَ عَلَيَّ مِنْ جَفْوَةِ الْمُسْلِمِينَ مَشَيْتُ حَتَّى

تَسَوَّرْتُ جِدارَ حائِط أبي قَتادَةَ وَهُوَ ابْنُ عَمِّي وأَحَبُّ النَّاس إِلَيَّ، فَسَلَّمْتُ عَلَيهِ فَوَاللهِ مَا رَدَّ عَلَيَّ السَّلامَ، فَقُلْتُ لَهُ: يَا أَبَا قَتادَةَ، أَنْشُدُكَ بالله هَلْ تَعْلَمُنِي أُحِبُّ الله وَرَسُولَهُ ﷺ؟ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ فَسَكَتَ، فَعُدْتُ فَنَاشَدْتُهُ، فَقَالَ: اللهُ ورَسُولُهُ أَعْلَمُ. فَفَاضَتْ عَيْنَايَ).

-فيه: جواز التعامل مع الكفار بالبيع والشراء؛ لقوله: (فَبَيْنَا أَنَا أَمْشِي في سُوقِ الْمَدِينة إِذَا نَبَطِيٌّ مِنْ نَبَطِ أَهْلِ الشَّام مِمّنْ قَدِمَ بالطَّعَامِ يَبيعُهُ بِالمَدِينَةِ)

-وفيه: أن أخبار المسلمين قد تشاع فتصل إلى الأعداء، وخاصة الآن في أزمنتنا مع وسائل الإعلام؛ فخبرُ كعب بن مالك وهجر النبي ﷺ وصحابته إياه بلغ العدو.

وفيه: أن أهل السوء يتحيَّنون فُرَص ضعف الإنسان؛ لأنه في حالة الضعف لا يثبت إلا من ثبته الله ﷻ.

-وفيه: ثبات كعب بن مالك وقوَّتُه في دين الله مع ضعف حالته وشدة أمره، ولكنه ثبت ولم يُصغِ لكلام أحدٍ، فكان هذا من مناقبه.

-وفيه: إحراق الرسائل التي يُخشى من بقائها تأثُّر النفس؛ فكعب بن مالك بادر إلى إحراق الرسالة؛ لأنه قد يقرأُها فيما بعد، وهذا لا يُؤمَن فيه على النفس، فإذا كان يوجد رسالة يُخشى منها الفتنة، فإن كانت في جوال تُحذَف، وإن كانت في ورقة تُحْرَق، أو تمزق إن لم يكن فيها ذكر الله.

-وفيه: أن قول الرجل لامرأته: (الحقي بأهلك) ليس بطلاق إلا إذا نوى، النَّبِيّ ﷺ يقول: «إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»(١٤). فهذه العبارة «الحَقِي بِأَهْلِكِ» من ألفاظ الكناية إذا نوى الطلاق يقع، وإذا لم ينو لم يقع.

-وفيه: الكناية في ألفاظ الاستمتاع؛ مأخوذ من قول امرأة هلال بن أمية: (إِنَّهُ واللهِ ما بِهِ مِنْ حَرَكَةٍ إِلَى شَيْءٍ).

-وفيه: رفع الصوت للحاجة؛ فكعب بن مالك يقول: (سَمِعْتُ صَوْتَ صَارِخٍ أوفَى عَلَى سَلْعٍ يَقُولُ بِأَعْلَى صَوتِهِ: يَا كَعْبَ بْنَ مَالِكٍ أَبْشِرْ) أما عند عدم الحاجة فليس من الآداب، قال تعالى: ﴿وَٱقۡصِدۡ فِي مَشۡيِكَ وَٱغۡضُضۡ مِن صَوۡتِكَۚ إِنَّ أَنكَرَ ٱلۡأَصۡوَٰتِ لَصَوۡتُ ٱلۡحَمِيرِ ١٩﴾ [لقمان: ١٩].

-وفيه: سجود الشكر لمن تجددت له نعمة، وهذا مستحب.

-وفيه: الفرج بعد الشدة، فهؤلاء الثلاثة مرَّ عليهم خمسون ليلة وهم في ضيق وكرب ثم جاء الفرج؛ لصدقهم وثباتهم، والله ﷻ يقول: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٥ إِنَّ مَعَ ٱلۡعُسۡرِ يُسۡرًا ٦﴾ [الشرح: ٥-٦]. والشاعر يقول:

عَسَى الْكَرْبُ الَّذِي أَمْسَيْتَ فِيْهِ ... يَكُوْنُ وَرَاءَهُ فَرَجٌ قَرِيْبُ

-وفيه: استحباب البِشارة بالخير؛ مأخوذ من: (فَذَهَبَ النَّاسُ يُبَشِّرُونَنَا، فَذَهَبَ قِبَلَ صَاحِبَيَّ مُبَشِّرونَ...).

---

(١٤) رواه البخاري (١)، ومسلم (١٩٠٧) عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

-وفيه: فرح الصحابة وسرورهم بتوبة الله على هؤلاء الثلاثة؛ ولهذا ذهب أناس يبشرونهم، فلم يكونوا يحسدون أو يشمتون.

-وفيه: الهدية للبشير والمكافأة ولو بالدعاء، فكعب كافأ من جاء يبشره وأهدى له ثوبين، مع أنه لا يملك غيرهما، كما قال:(وَاللهِ مَا أَمْلِكُ غَيْرَهُمَا يَوْمَئِذٍ).

-وفيه: ما كانوا عليه من ضيق الحال؛ فما كان عند هذا الصحابي إلا ثوبان رداء وإزار، ولكن لشدة فرحه نزع ثوبَيه وأعطاهما البشير.

-وفيه: المصافحة عند اللقاء؛ مأخوذ من قوله: (فَقَامَ طَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ يُهَرْوِلُ حَتَّى صَافَحَنِي وَهَنَّانِي).

والمصافحة من مكفرات الذنوب، يقول النَّبِيّ ﷺ: «مَا مِنْ مُسْلِمَيْنِ يَلْتَقِيَانِ فَيَتَصَافَحَانِ، إِلَّا غُفِرَ لَهُمَا قَبْلَ أَنْ يَتَفَرَّقَا» أخرجه أبو داود (٥٢١٢) عن البَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ.

-وفيه: عدم نسيان المعروف؛ فكعب بن مالك يقول: (وَلَا أَنْسَاهَا لِطَلْحَةَ).

-هذا الحديث من شمائل النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ وَسَلَّمَ وصفاته الكريمة، وأن السرور يظهر في وجهه...

-وفيه: فضيلة التوبة؛ مأخوذ من «أَبْشِرْ بِخَيْرِ يَومٍ مَرَّ عَلَيْكَ مُذْ وَلَدَتْكَ أُمُّكَ».

-وفيه: استحباب الصدقة للتائب من الذنب؛ مأخوذ من (إِنَّ مِنْ تَوْبَتِي أَنْ أَنْخَلِعَ مِنْ مَالِي صَدَقَةً إِلَى اللهِ وَإِلَى رَسُولِهِ).

-وفيه: أن من نذر بماله كله لا يلزمه أن يخرجه كله؛ مأخوذ من قول النَّبِيّ ﷺ: «أَمْسِكَ عَلَيْكَ بَعْضَ مَالِكَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ».

-وفيه: تفسير كعب بن مالك قوله سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ١١٨﴾[التوبة: ١١٨]، أنه ليس المراد التخلف عن الغزو، قال: (وَلَيْسَ الَّذِي ذَكَرَ مِمَّا خُلِّفْنَا تَخَلُّفُنَا عن الغَزْو، وإِنَّمَا هُوَ تَخْلِيفُهُ إِيّانا وإِرْجَاؤُهُ أَمْرَنَا عَمَّنْ حَلَفَ لَهُ واعْتَذَرَ إِلَيْهِ فقبِلَ مِنْهُ)، وهذا هو المراد بقوله: ﴿خُلِّفُواْ﴾ أي: خلِّفوا عن الحلف والكذب، وأُرجئ أمرهم: أُخِّر أمرهم.

وهذا دليلٌ على أن السيرة فيها عون كبير على فهم كلام الله ﷻ، وأن لها علاقة قوية بعلم التفسير.